الإصلاح التربوي بالمغرب: من المقرر إلى المنهاج

ماذا تغير في تدريس الإجتماعيات بالتعليم الثانوي الإعدادي؟

المصطفى الحسناوي
أستاذ بالثانوية الإعدادية حمان الفطواكي
مريرت

يعرف الحقل التربوي ببلادنا حراكا متناميا، وذلك باعتماد إصلاح التعليم بيداغوجيات حديثة (الكفايات، الإدماج، بيداغوجيا التحكم، البيداغوجيا التصحيحية ...)، بهدف تطوير الفعل التربوي والإرتقاء به ليصبح أكثر مردودية وجودة استجابة للتطور الذي يشهده المجتمع المغربي في مختلف مناحي الحياة.

وإذا كان الإصلاح سابق الذكر يسعى لتجديد مهام المدرسة المغربية باعتبارها المحرك الأساس للتقدم في مختلف المجالات، فإن مراجعة المناهج الدراسية أضحى أمرا لا مناص منه بقصد ملاءمتها مع متطلبات التطور و مقتضيات التوجيهات في السياسة التربوية.

ترى ما هي أوجه التشابه وأوجه الإختلاف بين المقرر والمنهاج الدراسيين ؟ وهل لا زالت الكتب المدرسية الحالية لمواد الإجتماعيات بالثانوي الإعدادي صالحة للتدريس بالبيداغوجيات الحديثة ؟

أولا : مراجعة المنهاج الدراسي لمواد وحدة الإجتماعيات بالتعليم الثانوي الإعدادي مدخل أساس لتحسين جودة تعليمها

1. تعريف المنهاج الدراسي

المنهاج قائمة من المحتويات وخطة عمل بيداغوجية متكاملة تشمل محتويات البرنامج الدراسي ومجموع الأنشطة الديداكتيكية المعتمدة لتحقيقها إضافة إلى البيداغوجيات التي تشكل مدخلا لعناصر المنهاج (بيداغوجيا الكفايات، بيداغوجيا الإدماج ...) وكذا طرق وأساليب تقويمها.

2. دوافع مراجعة المنهاج الدراسي لوحدة الإجتماعيات بالثانوي الإعدادي

يقتضي النهوض بالمدرسة المغربية و إصلاحها لتقوم بدورها على النحو الأمثل المتمثل في وظائفها الأساسية في التعليم والتعلم والتربية والتنشئة الإجتماعية والتأهيل، مراجعة المناهج الدراسية وفق احترام ثوابت الشخصية المغربية ومقومات الهوية الوطنية مع استحضار مكتسبات

البحث التربوي و الإنتقال بتدريس الإجتماعيات من مستوى التلقين السلبي الجامد إلى اعتماد طرق حديثة تجعل من المتعلم عنصرا فاعلا في اكتساب المعرفة بإدماج معلوماته السابقة.

3. اختيارات وتوجيهات مراجعة المنهاج الدراسي للإجتماعيات بالثانوي الإعدادي

بعد تفعيل بنود الميثاق الوطني للتربية و التكوين تم اعتماد اختيار المناهج بدل البرامج إذ تم الإنتقال من العمل بمفهوم «البرنامج : Programme» إلى الإشتغال بمفهوم «المنهاج : Curriculum» من أجل ترسيخ مبدإ التعلم الذاتي بتجاوز سلبيات التكوين الكمي خصوصا في مواد وحدة الإجتماعيات، وذلك بناءا على ثلاث دعائم أساسية هي :

- **البناء الذاتي للمعرفة :** إشراك المتعلم في العملية التربوية.
- **التفاعل الإيجابي بين المتعلم ومحيطه :** يجب ألا تقتصر أنشطة التعلم على التلقين والتلقي، بل يجب أن يتجاوزها إلى أنشطة الإشراك والمساءلة والبحث والإستكشاف.
- **التنشيط وفق استراتيجية التعلم الذاتي :** لا يجب أن تظل طرق التنشيط حبيسة الطرق التقليدية (اعتماد طرق التنشيط الحديثة).

4.ضرورة مراجعة وتطوير المنهاج الدراسي لوحدة الإجتماعيات للثانوي الإعدادي

إن الإقدام على أي إصلاح أو اتخاذ أي قرار تربوي ينبغي أن يؤسس على نتائج البحث العلمي الميداني والتجريبي الذي يستهدف المتعلم أساسا، تجنبا للسقوط في مشاكل تربوية وتعليمية تعلمية، لذا يلزم إدخال مفاهيم وتقنيات ومنهجيات حديثة ومتطورة لتزويد منهاج مواد وحدة الإجتماعيات بآليات منهجية دقيقة لتصحيح المسار و تحقيق الإقلاع من جديد في اتجاه بلوغ جودة ونجاعة التعلمات في هذه الوحدة.[1]

كما بات من الضروري إعادة النظر في مناهجنا التعليمية ـ منهاج وحدة الإجتماعيات بالتعليم الثانوي الإعدادي على سبيل المثال ـ من حيث العلاقة العضوية والجدلية بين البرامج والمناهج الدراسية و نظام التقويم و المتعلم الحقيقي (كما هو الواقع وليس كما هو مفترض نظريا).

وذلك باعتماد مقاربات ودراسات عملية وميدانية حقيقية وموضوعية، تعتمد معايير الكيف والنوعية والإبداعية وليس الكم و النسخ.[2]

1- الدكتور العربي الهداني (الإصلاح التربوي : تدقيق المناهج أولا) «مجلة علوم التربية» ـ العدد 42، (يناير 2010) ص : 50.
2- ذ. محمد الصدوقي (مراجعة المناهج الدراسية مدخل لتحسين جودة التعليم) جريدة «الإتحاد الإشتراكي» (الملف التربوي، ص : 3) 30 – 2010/01/31.

ثانيا : الكتاب المدرسي للإجتماعيات من التوحيد إلى التعددية : (التعليم الثانوي الإعدادي نموذجا)

1. الإنتقال من الكتاب الوحيد إلى الكتاب المتعدد : ماذا تغير في تدريس الإجتماعيات بالثانوي الإعدادي ؟

في وقت يتداول فيه موضوع مراجعة المناهج في أفق تجديدها استجابة للإصلاحات التربوية، أضحى الكتاب المدرسي باعتباره وسيلة تربوية أساسية مستهدفا من قبل هذا الإصلاح والتغيير، إذ بالرغم من كونه مادة متنوعة (وثائق مكتوبة، رسوم، معلومات شارحة، خلاصات، بيانات ...)، فإنه لم يطور بما فيه الكفاية لكي يكون أداة توظف داخل عمليات تعلم جديدة ؛ ذاتية أو مؤسسية ... «نعم لدينا كتب مدرسية متنوعة ـ مع الإعتراف بحدوث تطور ملموس في التأليف وصناعة الكتب وتنويع بنائه الوثائقي ـ لكنها وضعت لبناء دروس لا للإستخدام داخل وضعيات تعلمية».[3]

تزامن تطبيق بيداغوجيا الكفايات وأجرأة بنود الميثاق الوطني للتربية و التكوين مع تأليف وإنتاج كتب مدرسية جديدة تتميز بالتعددية، حيث وصل عددها إلى ثمان كتب مدرسية خاصة بالإجتماعيات بالتعليم الثانوي الإعدادي، مع تأليف نفس العدد من الأدلة (جمع دليل) الخاصة بالأساتذة والأستاذات تيسيرا للعملية التعلمية ـ التعليمية، لكن تجدر الإشارة ونحن في نهاية عشرية الإصلاح إلى أن نتائج البرنامج الوطني لتقويم التحصيل الدراسي أكدت على كون المضامين التعلمية الخاصة بالمواد الدراسية تتميز بالتضخم، موضحة أنه كلما كانت التعلمات ذات دلالة ومعنى بالنسبة للمتعلم كانت مستويات التحصيل لديه مرتفعة، وهو استنتاج ينطبق على جميع المواد والمستويات التعليمية، وبناء على ما سبق يعد تخفيف المضامين التعليمية مطلبا ملحا وآنيا، وتزداد إلحاحية هذا التخفيف في التعليم الثانوي الإعدادي بالنظر إلى الكم الهائل من المواد التعليمية المدرسة فيه.[4]

إن البناء الوثائقي للكتاب المدرسي لمواد وحدة الإجتماعيات بالتعليم الثانوي الإعدادي، ظل تقريبا محتفظا ببنية الدرس كما يلقى داخل الفصل كما لو كان استجابة لعمليات التدريس لا لهاجس بيداغوجيا خاصة بالتعلم المدرسي (بيداغوجيا الكفايات، بيداغوجيا الإدماج ...).[5]

لذلك وجب التفكير وإعادة النظر في مسألة البرامج والكتاب المدرسي (كما ونوعا) من أجل التخفيف والتركيز على الكفايات الأساسية عوض الحشو الكمي للمضامين والمواد، للرفع من جودة التعليم من حيث المحتوى والمناهج، ولأجل التخفيف والتبسيط والتكيف لجعل المتعلم كفرد

3- ذ. عبد الحق منصف (مشكلات العلاقة البيداغوجية داخل المدرسة المغربية) ـ «**دفاتر التربية و التكوين**» ـ العدد : 1 (نونبر 2009) ص : 36.
4- الدكتور عبد الكريم بلحاج (مفارقات المنظومة التربوية المغربية) ـ مجلة «**الحياة المدرسية**» ـ العدد : 16 (نونبر 2009) ص : 41.
5- ذ. عبد الحق منصف (مشكلات العلاقة البيداغوجية داخل المدرسة المغربية) ـ «دفاتر التربية و التكوين» ـ العدد : 1 (نونبر 2009) ص : 36.

ومواطن قادرا على أن يكون فعالا وفاعلا في مجتمعه، وهذا يتحقق باعتماد مناهج وبرامج تعليمية وتقويمية تمتح من المرجعيات البيداغوجية الحديثة التي تقطع مع البيداغوجيا التقليدية والسلبية المتمحورة حول الذاكرة والمعلومات (بضاعتنا ردت إلينا)[6] التي ظلت لمدة طويلة عالقة بأذهان الكثير من المتعلمين خاصة في مواد وحدة الإجتماعيات التي يجب أن يركز في تدريسها على جوانب مهارية وقيمية لمحو هذه النظرة السلبية تجاهها.

2. الكتاب المدرسي المأمول لتدريس الإجتماعيات بالثانوي الإعدادي في ظل البيداغوجيات الحديثة

إذا كان المنهاج الدراسي خطة تربوية شاملة أوسع من البرنامج أو المقرر لأنه يتضمن الأهداف التعليمية المرومة، والمحتويات المعرفية أي المادة العلمية وطرق ووسائل تعليمها وتعلمها وأدوات القياس والتقييم اللازمة للتحقق من مدى بلوغ الأهداف المنشودة،[7] فإن الكتاب المدرسي هو الوسيلة والإمكانية التي توفرها المدرسة المغربية للمتعلم، وإن كان استعمالها ـ الوسيلة ـ يعرف بعض الإختلالات من قبيل أن الكتب المدرسية المقررة لتدريس الإجتماعيات بالتعليم الثانوي الإعدادي بالرغم من كثرة عددها واختلاف مضامينها، فإن محتوياتها تتميز بعدم التلاؤم مع الوضعيات الإدماجية المضمنة في الدليل الرسمي بسبب الإختلاف الكبير في التصورات وتعدد التمثلات فاختيار بيداغوجيا الإدماج كمقاربة لإعطاء التعلمات معنى ودلالة يعد أمرا إيجابيا، إلا أن تفعيل هذه البيداغوجيا يقتضي المراجعة الجدرية و الشاملة للكتاب المدرسي (الإجتماعيات نموذجا) بما يتلائم مع هذه البيداغوجيا في مفاهيمها وإجراءاتها، ودون تحقيق هذا المطلب فلا داعي إلى التعويل كثيرا على بيداغوجيا الإدماج في الإرتقاء بجودة التعليم.[8]

شكل تطبيق بيداغوجيا الإدماج بالمدرسة المغربية منعطفا حقيقيا لأجرأة فعلية لمخططات البرنامج الإستعجالي التي تروم إضافة نوعية إلى منظومة التربية والتكوين، وتعتبر بيداغوجيا الإدماج الإطار المنهجي والعملي لتطبيق المقاربة بالكفايات التي خلقت نقاشا بين الباحثين في مجال التربية، خاصة فيما يخص الكتب المدرسية التي ظلت تطبع منذ بداية «عهد التعددية» دون خضوعها للمراجعة والتصحيح الفعلي (أكثر من 8 سنوات).

وهكذا فعوض أن توضع رهن إشارة الممارسين كل المؤلفات (الكتب المدرسية) لاختيار الملائم منها، فرض عليهم التقيد بكتاب مدرسي بعينه دون آخر. فأين نحن من تحرير الكتاب المدرسي ؟[9]

قد يكون الرهان من تعدد الكتب المدرسية ظاهرة صحية، إذ تتاح لكل لجنة تأليف على

6- مراجعة المناهج الدراسية مدخل لتحسين جودة التعليم) جريدة «**الإتحاد الإشتراكي**» (الملف التربوي ص : 3) 30 – 2010/01/31.
7- العربي اسليماني : (المعين في التربية : مرجع الإمتحانات المهنية و الكفاءة التربوية) الطبعة الأولى 2006 ص : 133.
8- ذ. عبد الكريم مفضال (تعدد الكتب المدرسية لا يساير بيداغوجيا الإدماج) جريدة «**الصباح**» ـ العدد 3048 (28 يناير 2010) ص : 6.
9- ذ. عبد الكريم مفضال (تعدد الكتب المدرسية لا يساير بيداغوجيا الإدماج) جريدة «**الصباح**» ـ العدد 3048 (28 يناير 2010) ص : 6.

حدة فرصة بلورة كفاءاتها وتبرير اختياراتها،[10] لكن تجربة الكتب المدرسية المتعددة «المفروضة» على الممارسين يمكن القول إنها وصلت إلى الباب المسدود، لذلك يجب تأليف كتب مدرسية في مستوى التطلعات، وفي ظل هذه الظروف فإن مدرس الإجتماعيات بالتعليم الثانوي الإعدادي مطالب بوضع تخطيط مرحلي لإرساء الموارد اللازمة للكفايات المتوخى تحقيقها لأن الأنشطة التعلمية التي تتضمنها الكتب المدرسية الحالية ظلت تقليدية إلى حد ما لاعتمادها على التدريس ببيداغوجيا الأهداف المغلفة بالمقاربة بالكفايات المشتة في «المقرر الدراسي»، وهذا الخلل يفرض على مدرسي مواد وحدة الإجتماعيات خلق التجانس بين مكونات المنهاج من خلال رصد وتقديم وضعيات ديداكتيكية و تعلمية ضمن مشروع تربوي واضح المعالم في انتظار مراجعة البرامج والمناهج والكتب المدرسية مراجعة دقيقة تتماشى وإعمال بيداغوجيا الإدماج وكل البيداغوجيات الحديثة القمينة بإصلاح التعليم ببلادنا.

خلاصة

لابد من إعادة النظر في الكتب المدرسية لمواد وحدة الإجتماعيات من أجل أن تلاقي البيداغوجيات الحديثة النجاح المنشود (بيداغوجيا الإدماج خصوصا)، كما على مدرسي الإجتماعيات والمشرفين التربويين وكل المهتمين تتبع الوضع التربوي لرصد وتشخيص «عثراته» وإبداء الآراء بهدف إجراء تجديدات وتعديلات تربوية على بعض الكتب المدرسية لجعلها مسايرة لأي إصلاح مأمول.

10- ذ. عبد الرحمان الحميدي (الكتاب المدرسي بين وهمية التعدد و واقعية التوحد) ـ «الجريدة التربوية» ـ العدد 31 (25 يناير 2010) ص : 5.